

قيمةُ عملِ الخيرِ عندَ الله عزّ وجل



تريد هذه الآية أن تؤكد للإنسان كيف يكون إنساناً منفتحاً على الناس من حوله، على أساس أن يكون العنصر الخيّر الذي إذا فكّر في خير الناس، وإذا تكلم سرّاً أو علناً مع الذين يدبر معهم القضايا، فإنّه يتكلّم بخير الناس، على أساس أن الله أراد للإنسان في الحياة عندما خلقه، أن يستخدم طاقاته التي أنعم بها عليه في طريق الخير لا في طريق الشرّ. كأنّ الله يريد أن يقول لكل واحدٍ من عباده، إنّ طاقاتكم لم تصنعوها أنتم، أنت لم تصنع عقلك، لم تصنع سمعك وبصرك، أنا الذي صنعت لك كلّ شيء وأنا ربُّك الذي خلقتك، ولقد أعطيتك هذه الطاقات التي من الممكن أن تحرّكها للخير، ويمكن أن تحرّكها للشرّ. ولكنّي عندما أعطيتك حرية الإرادة، أردت أن تتحسّس مسؤوليّةك أمامي أنا ربّك، لتتحمّس مسؤوليّةك أمام الحياة وأمام الناس. أريد منك أن توجّه إرادتك في طريق الخير، وعلى هذا الأساس، فإنّي عندما منحتك حرية الحركة، لم أمنحك حرية أن تختار الشرّ وأنت تقدر على الخير، فإذا فعلت ذلك، فإنّني سأُعاقبك، وإذا حرّكت الخير في حياتك، وإذا عشت حياتك وأنت تحرّك فكرك للتخطيط للخير، وأنت تطلق لسانك، ليتكلّم بكلمة خير، وأن تحرّك يديك ورجليك، وتسمع بأذنك وترى بعينيك، لتجعل ذلك كلّهُ في خدمة الخير، إذا فعلت ذلك من أجل أن تحصل على مرضاتي، فسوف أؤتيك أجراً عظيماً.

عليك أن تفكّر وأنت الآن في الدُّنيا؛ اِنا يقول لنا ذلك، فكّر يا عبد اِنا وأنت تملك في الحياة حرية الحركة، فإِنا لم يقيّد يدك حتّى لو فعلت بهما الشرّ، ولم يقيّد رجلك، ولم يطفئ النّور في عينيك، ولم يعطّل السّمع في أذنيك، ولم يجمّد التفكير في عقلك، ولم يمنعك من النطق بلسانك، لم يفعل ذلك ربّك، لكنّه قال: يا عبد اِنا، اختر بين أمرين؛ بين أن تُقبّل إلى اِنا وأنت تحمل الشرّ على ظهرك لتواجه العقوبة في ناره، أو أن تحمل الخير في قلبك وعقلك ولسانك وسمعك وبصرك ويدك ورجلك، ليقول لك اِنا: مرحباً بعبي الذي عاش حياته من أجل أن يحصل على رضاى، وتألّم وتعذّب وحاربّ شهوات نفسه، وحاربّ الذين يريدون أن يضلّوه وابتعد عنهم، مرحباً بعبي الذي أطاعني، سأدخله جنّتي (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّاتِي) (الفجر/ 27 - 30).

هل تحبّ هذا النداء؟ هذا النداء يحمّلك مسؤوليّة. فإذا أردت وأنت تغصّ عينيك للمرة الأخيرة، أن يقول ربّك لنفسك: (فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّاتِي)، فلا بدّ أن تتعب، ولا بدّ أن تجاهد نفسك، ولا بدّ أن تتلمّس مواقع الخير في نفسك. أغلق سمعك عن كلمة شرّ، أغلق عينك عن كلّ موقع شرّ يراد لك أن تسير فيه، أغلق عقلك عن أن يخطّط للشرّ، احبس يدك عن أن تستعمل بهما الشرّ، احبس رجلك عن أن تسير بهما إلى مواقع الشرّ، ما رأيك في ذلك؟ هل تحبّ هذا النّداء، أم تحبّ النّداء الآخر؟ (خُذْهُ وَغُلّْهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلّْهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكْهُ * إِنَّ زَنْهَ كَانِ لَا يُؤْمِنُ إِلَّا الْعَظِيمُ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَمْسُوكِينَ * فَلَا يَسْ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِن غِسْلَيْنِ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِؤُونَ) (الحاقة/ 30 - 37).

فكّر قبل أن لا تستطيع أن تفكّر، وأحكم سفينتك في هذه الأمواج؛ أمواج الشرّ والضّلال التي تتقاذفك ذات اليمين وذات الشمال، فكّر أن تحكم سفينتك قبل أن تغرقك الأمواج، وأنت تقول لنفسك ستركب الأمواج؛ إنّ الذين يركبون الأمواج، إذا لم يكن ركوبهم لها من موقع ثابت، فستقلبهم الأمواج، وتتقاذفهم إلى عمق البحر.